خطبة صلاة الجمعة 29/ 7/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أول سورة وأول حديث بعد الهجرة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوبة:40].

أخرج البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**» وفي رواية ابن ماجه: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**».

عنوان خطبة اليوم: **أول سورة وأول حديث بعد الهجرة**

أيها الإخوة:

بمناسبة بدء العام الهجري الجديد غداً، جاءت هذه الخطبة، وقد أجمع المسلمون من زمن سيدنا عمر على جعل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من مكة إلى المدينة مرجع تاريخهم، فجعلوا يقولون حدث هذا في السنة الأولى للهجرة وحدث هذا في السنة الخمسين للهجرة وحدث هذا قبل الهجرة بعامين.

وكذلك جعلوا الهجرة مادةَ فهم القرآن الكريم، فسُوَرُ القرآن الكريم -كما تعلمون- نوعان: مكية ومدنية، فالمكي: هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني الذي نزل بعد الهجرة، ومعرفة المكي والمدني يعين على فهمٍ أفضل للسورة.

وفي حادثة الهجرة دروسٌ كثيرةٌ، سأختار لكم درساً واحداً يسَعُهُ المقامُ نفيد منه في وقتنا هذا عنوان هذا الدَّرس: أول سورة وأول حديث في المدينة المنورة.

أيها الإخوة:

تعلمون أنّ أوائل الأشياء تدل على خواتيمها، فالبدايات عنوان النهايات، وتعلمون أن أوائل الأشياء تشير إلى مضامينها، وتعلمون أنّ براعة الاستهلال تقوي الحال والمقال.

وإننا لنحفظ أنّ أول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة (اقرأ) فدلّت الأوائل على أنّ هذا الدين دين علم ومعرفة.

فما أول آية نزلت في المدينة المنورة وما أول حديث؟

أما أول آية: فقد أخرج ابن ماجه في سننه والنسائي في الكبرى عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 1، 6] فأحسَنوا الكيلَ بعد ذلك".

وأما أول حديث: فقد أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «أول ما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ انْجَفَل الناس إليه، فكنتُ فيمن جاءه، فلما تأمَّلْتُ وجهه واسْتَثْبَتُّه، عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجهِ كَذَّاب، قال: فكان أولَ ما سمعتُ من كلامِهِ أن قال: يا أيُّها الناس، أفْشُوا السلام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنةَ بسلام».

نقرأ في هذين النصين الكريمين الفوائد الآتية:

أولاً: النصان الكريمان يؤسسان للمدينة الفاضلة وللمجتمع السليم:

يؤسسان لمدينةٍ لا غش فيها ولا اعتداء على أموال الناس، لا تطفيف فيها ولا كيل بمكيالين، لا محاباة فيها لقوي على حساب ضعيف ولا لثري على حساب فقير ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1].

يؤسسان لمجتمع ينتشر فيه السلم الأهلي والسلم الاقتصادي والسلم الاجتماعي والسلم الأخلاقي «**أفشوا السلام**».

يطعم فيه الواجدُ الفاقدَ، ويعلم فيه العالمُ الجاهلَ، ويعين فيه القادرُ العاجز «**وأطعموا الطعام**».

لمدينة تُعرفُ بالليل بأصوات التالين للقرآن، ومجتمع يرقى بالمستغفرين بالأسحار «**وصلّوا بالليل والناس نيام**».

ولقد فعلَ هذا النصان فعلتهما في مجتمع المدينة، فصارت منورة وصارت محرمة وصارت طيبة.

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَدِمَ عبد الرحمن بنُ عوف، فآخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعدِ بنِ الرَّبيع الأنصاريّ، وعند الأنصاريّ امرأتان، فعرض عليه أن يُناصِفَه أهلَه ومالَهُ، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلُّوني على السُّوق، فأتَى السوقَ، فرَبِحَ شيئاً من أقِط، أو شيئاً من سَمْن.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار للنبيّ صلى الله عليه وسلم: «اقسم بيننا وبين إخواننا النخيلَ، قال: لا، فقالوا: تَكْفُونا المؤونةُ ونشْرَكُكم في الثمرة؟ فقالوا: سمعنا وأطعنا». هذان في إطعام الطعام.

وأخرج أبو داود والترمذي عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خرج ليلة، فإذا هو بأبي بكر يُصلّي، يخفِضُ من صوته، ومرَّ بعُمَرَ يُصلّي، يرْفَعُ من صوته، فقال لأبي بكر من الغد: «مررتُ بك وأنت تقرأُ، وأنت تخفض من صوتك؟» فقال: إني أسمعتُ من ناجيتُ، قال: ارْفعْ قليلاً، وقال لعمر: مررت بك وأنت تقرأُ، وأنت ترفع من صوتك؟ قال: «إني أُوقِظُ الوَسنان، وأطردُ الشيطان، قال: اخفِض قليلاً».

وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لو رأيتني البارحة، وأنا أسمعُ لقراءتك؟ لقد أُعْطِيتَ مِزْماراً من مزامير آل داود**».

وهذا نصان في الصلاة بالليل والناس نيام.

فبهذين النصين الكريمين وأمثالهما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة والمجتمع السليم الذي تمناه الساسة والمفكرون، فمن أراد مدينةً فاضلة وبلداً مطمئناً وأرضاً آمنة فهذه طريقها.

ثانياً: النصان الكريمان يؤكدان أنّ الإسلام عمل دؤوب وجهد مثمر:

فإذا كانت أول آية في مكة (اقرأ) تدل على أنّ الإسلام دين العلم، فإنّ أول آية في المدينة وأول حديث يدلان على أن الإسلام دين العمل، ولكنه العمل الصالح الذي لا غش فيه ولا خديعة ولا اعتداء على أموال الناس وحقوقهم.

إنّه العمل النافع الذي يقوم المسلم فيه بإطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام.

لعل امرءاً يتوقع من القرآن والسنة أن يخاطِبا المسلمين بدعوتهم إلى الراحة بعد عناء السفر، وخلودهم إلى الدعة بعد نجاتهم من حصار أهل الكفر، ولكنه يتفاجأ بأن أول آية وأول حديث يدعوان إلى العمل النافع والسعي الصالح، يدعوان إلى الجد في القضاء على الفساد والجد في بناء الأمجاد، ذلك لأن الإيمان حركة، ولأن الدين بناء، ولأن الإسلام جاء لعمارة الدنيا والآخرة.

ولذلك كنت ترى أبا بكر الصديق وعثمان بن عفان وغيرهما يعملان في التجارة ويعملان في مصالح المسلمين، وكنت ترى علي بن أبي طالب وسلمان الفارسي يعملان بالأجرة ويعملان في تعليم المسلمين، وكان الزبير بن العوام جزاراً، وسعد بن أبي وقاص برياً للنبل، وعثمان بن طلحة خياطاً، وأبو سفيان تاجراً في الزيت والجلود.

وقد أضافوا لعمارة الدنيا عمارة الآخرة، كان سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إني لأكره الرجلَ فارغاً، لا هو في عمل الدنيا، ولا هو في عمل الآخرة.

ثالثاً: النصان الكريمان يدلان على أنّ الإسلام جاء بترك المحرمات المضرات وفعل الصالحات النافعات:

فالتطفيف محرّم والمسلم مدعو لتركه مع سائر ما حرمه الله عليه، وإطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام عمل صالح والمسلم مدعو للقيام بها وبسائر ما أمره الله به.

يعمل شاب في مكتب لمتعهد بناء، وكله المتعهد يوماً بجمع الفواتير وتحريرها وأرشفتها لتسليمها للزبائن عند المحاسبة، وطلب إليه أن يزيد في المساحات ويغير في كميات المواد زيادة على الأعمال الحقيقية..!

إن أول آية وأول حديث في المدينة المنورة يدعوان هذا المتعهد إلى ترك المحرمات وفعل المأمورات إن أراد أن يدخل الجنة بسلام.

لم يُعطِ رجلٌ إخوته وأخواته البنات حظَّهم من إرث أبيهم الذي قضى منذ ثلاث سنوات، بينما هو يرتع في المال كيف يشاء! وإذا سألوه عن نصيبهم المفروض أعلمهم أنه محفوظ لديه ليعطيهم إياه في الوقت المناسب.

إنّ أول آية وأول حديث في المدينة المنورة يدعوان هذا الرجل إلى ترك المحرمات وفعل المأمورات إن أراد أن يدخل الجنة بسلام.

بَلَغَ من العمر أربعين سنة، ولا يحافظ على صلاته ولا يتقنُ قراءةَ جزءٍ من القرآن الكريم قراءةً صحيحةً؛ إذ لا يجد متَّسعاً من الوقت لصلاة أو لتعلم قرآن، بينما يجد متسعاً للذَّهاب إلى العمل، والنَّوادي الرِّياضية، وحفلات السَّمر!

إنّ أول آية وأول حديث في المدينة المنورة يدعوان هذا الرجل إلى ترك المحرمات وفعل المأمورات إن أراد أن يدخل الجنة بسلام.

على الرُّغم من صلاته وصومه، وقيامه وحجِّه، لا زالت حقوقُ العباد الماليةُ في عُنُقِهِ، لم يؤدِّها، بل لا يريد أداءها على المدى القريب! ديونٌ حلَّتْ آجالُها، وأقساطٌ حان سدادُها!

إن أول آية وأول حديث في المدينة المنورة يدعوان هذا الرجل إلى ترك المحرمات وفعل المأمورات إن أراد أن يدخل الجنة بسلام.

أيها الإخوة:

هذا حديثي لكم عن أول آية وأول حديث في المدينة المنورة:

- النصان الكريمان يؤسسان للمدينة الفاضلة وللمجتمع السليم.
- ويؤكدان أن الإسلام عمل دؤوب وجهد مثمر.
- ويدلان على أن الإسلام جاء بترك المحرمات المضرات وفعل الصالحات النافعات.

أخرج الإمام أحمد في المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«الْهِجْرَةُ أَنْ تَهْجُرَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَتُقِيمَ الصَّلاة، وَتُؤْتِيَ الزَّكاة، ثُمَّ أَنْتَ مُهَاجِرٌ، وَإِنْ مُتَّ بِالْحَضَرِ»**.

والحمد لله رب العالمين